الفصل الثالث

النسق الاجتماعى والمجتمع

أولا : علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى ٠

ثانيا : التفاعل الاجتماعى ٠

ثالثا : النسق الاجتماعى وبيئته ٠

رابعا : مستويات تحليلية ٠

خامسا : الأنساق الفرعية للمجتمع ٠

سادسا : مجموعة الروابط المجتمعية ٠

سابعا : أنساق التبادل ٠

ثامنا : التغير البنائى ٠

تاسعا : تطور المجتمعات ٠

عاشرا : علم الاجتماع المقارن ٠

النسق الاجتماعى والمجتمع

خصصنا الفصل السابق للكلام عن النظرية العامة فى الفعل التى تمثل لب أعمال بارسونز • ولقد رأينا أن بارسونز قدم النظرية العامة فى الفعل كنموذج شامل ذى درجة عالية من التعميم بحيث يكون قابلا للتطبيق على كل العلوم التى تدرس الفعل الاجتماعى بشكل أو بآخر ، ونستطيع الآن أن نهتم بالنظرية السوسيولوجية فقط • لقد حدد بارسونز نطاقا معينا لعلم الاجتماع • ولكى نحدد هذا النطاق فاننا يجب أن نضع علم الاجتماع داخل النظرية العامة فى الفعل وفى علاقته مع العلوم الاجتماعية الأخرى •

أولا : علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى

حدد بارسونز موضوع علم الاجتماع بأنه **الفعل الاجتماعى كما يتجسد فى الأنساق الاجتماعية** • ويعنى هذا انه ما دام النسق الاجتماعى يهدف ـ داخل الاطار العام لنسق الفعل ـ الى تحقيق وظيفة التكامل، فإن التكامل هو مجال الدراسة فى علم الاجتماع • وهكذا فاننا اذا أخذنا النظرية العامة فى الفعل كنقطة انطلاق ، فاننا يجب أن ننظر الى علم الاجتماع على أنه يتميز عن العلوم الاجتماعية الأخرى بميدان دراسته الخاص •

وفى نفس الوقت الذى يتميز فيه علم الاجتماع عن العلوم الاجتماعية الاخرى ، فان النظرية العامة فى الفعل تحدد أيضا علاقات علم الاجتماع بهذه العلوم • فالفعل البشرى لايقتصر على النسق الاجتماعى الفرعى وحده ، فهو يتضمن كائنات عضوية بيولوجية وعصبية ، كما يتضمن أنماطا من الشخصية ، وعالما من الرموز ، والمعايير والقيم • ولا يستطيع أن يغطى كل مجال من مجالات الفعل الا علم موسوعى كما ذهب بارسونز • غير أن هذا العلم الموسوعى لا يجب أن يكون

علما امبرياليا مسيطرا ، لأنه يجب أن يكون محاولة لتوحيد كل ضروب المعرفة التى تتعلق بالانسانية داخل اطار تصورى أو نظرى واحد · ومنذ اعماله المبكرة رفض بارسونز الادعاء الذى مؤداه أن علم الاجتماع ، أو أى فرع آخر من فروع المعرفة الاجتماعية ، يجب أن ينتصب من نفسه « ملكا » على العلوم الاجتماعية الأخرى ، بأن يدعى لنفسه مكانة أعلى أو قدرة تفسيرية أوسع من العلوم الأخرى ·

ودائما ما أظهر بارسونز اتجاها يقوم على المساواة الدقيقة بين العلوم الاجتماعية المختلفة · فكل علم من هذه العلوم ـ علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد ، والعلوم السياسية ، والانثروبوروجيا ـ يعالج جانبا واحدا فقط من الفعل الاجتماعى · فأى علم من هذه العلوم ليس اهم من العلوم الأخرى ، لأن كلا منها ضرورى لفهم وتفسير الواقع الملموس · لهذا فان كل فرع من فروع المعرفة الاجتماعية يعتبر علما مستقلا ، فى الوقت التى تشكل فيه كل هذه الفروع علما كليا لدراسة الفعل · فلابد من وجود تمييز تحليلى بين الفروع المختلفة وذلك لتجنب الخلط بين الجوانب المختلفة الفعل ، التى يجب أن تتعرض لها العلوم الاجتماعية ولكن يجب أن نؤكد ـ فى نفس الوقت ـ تأكيدا صارما على أن الفعل الاجتماعى يمثل وحدة شاملة ؛ فيمكن تقسيمه بطريقة تحليلية ، ولكنه يظل فعلا واحدا · وبناء عليه فان كل العلوم الاجتماعية تدرس نفس الموضوع تقريبا ، ولهذا فان الحدود بين هذه العلوم دائما ما تكون مفتوحة · فلا يستطيع أى من هذه العلوم أن يستقل استقلالا كاملا ، كما أنه لا يستطيع أن يسيطر على العلوم الاخرى ·

وفى اعتقاد بارسونز أن ادعاء مكانة سامية لأى علم من العلوم الاجتماعية يمثل خطأ منهجيا ونظريا فى آن واحد · وتنتج المساواة بين العلوم الاجتماعية المختلفة من ارتباط كل منها بدراسة الفعل البشرى ، وما يترتب الى ذلك من تعاون هذه العلوم ، وانطلاقها من اطار تصورى واحد · ويعد هذا الموقف أحد المواقف الجوهرية لتالكوت بارسونز ، بل انه مهد له الطريق فى كل اعماله ـ فى علم النفس ، والاقتصاد ، وعلم السياسة ، وعلم الاجتماع · ولقد اتخذ بارسونز

هـذا الموقف فى بداية حياته الاكاديمية ، مدافعا عن علم الاقتصاد وليس علم الاجتماع · فمذ المشكلات التى عالجها فى مقالاته الأولى التى نشرت فيما بين ١٩٢٨ و ١٩٣٥ ، وكذلك فى رسالتـه للدكتوراه فى هايدلبرج ، اهتم بارسونز بالجوانب غير الاقتصـادية للعمليـة الاقتصـادية وهـو شىء اعتبره الاقتصاديون هامشيا بالنسبة لعلمهم · حقيقـة أن الاقتصاد السياسى كان بامكانه أن يصبح علما اجتماعيا موسوعيا فى القرن الثامن عشـر والتاسع عشـر · ولكنه مع ذلك فشـل فى ذلك لأن الاقتصاديات الكلاسيكية كرست نفسها للاهتمام بنوع واحـد فقط من الفعل البشرى ، واعنى السلوك الاقتصـادى الرشيد · فاى شىء لا يضع معايير معينة للرشد لا يعد شيئا ذا فائدة ؛ ولقد حاولت النظرية الاقتصادية الكلاسيكية جاهدة أن تبعد مثل هـذه الموضوعات خارج نطاق بحثهـا ، انطلاقا من القضية المحـورية التى مؤادها أن أى عوامل لا تعضد القضية الأساسية التى تطرحهـا النظرية يمكن اعتبـارها عوامل ثابتـة (أى لا تؤثر فى العوامل الاقتصادية) ·

ولقـد اقتنع بارسونز بأن نفس الشىء يجب أن ينطبق على العلوم الاجتماعية الأخرى · فكل منهـا يجب أن يتبع نفس أسلوب علم الاقتصاد وأن يتجنب الاغراء بأن يصبح علما موسوعيا ، وبأن يطـور نفسـه من خلال تحليل جانب واحـد من الفعل البشرى · وفى هذه الحالة فسوف يحصل كل منهما على هوية مستقلة ، وحـدود واضحة ومعروفة كما فى علم الاقتصاد ·

ومن الناحية الأخـرى ، فان الاقتصاديات الكلاسيكية قد وقعت فى خطـأ حينما اعتبرت أن كل شىء يتاخم نطاق بحثها انما هو شىء ثابت (لا يؤثر فى السلوك الاقتصـادى) ، ومن ثم يجب اهماله · ان مثـل هـذا الاتجـاه يمكن الدفاع عنه عنـدما كان علم الاقتصـاد هو العلم الاجتماعى الوحيد المعترف به ، غير أن مثل هـذا القـول لا يعد منطقيا فى هـذه الأيام · ففى الوقت الذى يجب فيـه المحافظة على استقلال كل علم من العلوم الاجتماعيـة ، فاننا يجب أن نستكشف العلاقات التى تربط بينها بطريقـة منهجية منظمة · ولا يمكن القيام بمثل هـذا العمل الا اذا

كان هناك قاسم مشترك بين العلوم الاجتماعية جميعا ؛ وهـذا هو ما فعله بارسونز عندما قدم النظرية العامة فى الفعل ٠

ثانيا : التفاعل الاجتمـاعى

ذكرنا آنفا أن موضوع علم الاجتماع ـ فى نظر بارسونز ـ هـو الفعل الاجتمـاعى كما يتجسد فى الأنساق الاجتماعية ٠ ويحتاج هـذا القـول الى بعض التفسير ٠ ما الذى يميز هذا الشكل المحدد من اشكال الفعل الاجتماعى ؟

يعتبر النسق الاجتمـاعى أولا وقبـل كل شىء شبكة من العلاقات بين الناس وبين الجماعات ؛ انه يجمع مجموعة من الفاعلين فى رابطـة واحـدة ٠ بعبارة اخـرى ، **فان افعال الفاعلين داخل النسق الاجتماعى يتظر اليها بالتحديد من خلال تفاعلها مع افعال الآخرين** ٠ من هذا المنطلق، فان الموضوعات الفيزيقية والرمزية والثقافية لا تتصل بالنسق الاجتماعى: انهـا تمثل عوامل خارجيـة تحـدد التفاعل بين الفاعلين وتضع عليـه شروطا معينة ٠

ويجب أن نشير فى الحال الى أن الفاعلين داخل النسق الاجتماعى لا يجب ان يكونوا بالضـرورة افرادا ٠ فمن الممكن أن يكونوا ايضـا جماعات ، أو تجمعات كالقرية مثلا ، او المنطقـة الجغرافية ، او طبقـة اجتماعية او امة بأسرها ٠ ولهـذا فان تطبيق نموذج التفاعل الذى قدمه بارسونز لا يرتبط بمستوى العلاقات الشخصية بين الأفراد فقـط ، ولكنه يمكن أن يمتد الى كل مستويات الواقع الاجتماعى ٠

يتضمن التفاعل الاجتمـاعى ثلاثة عناصر : **فأولا** : يجب أن توجد توقعـات متبـادلة بين الفاعلين ٠ فالفاعل (الطرف الأول فى التفـاعل وهـو الأنا Ego) يتوقع من الفاعل الأخر أو الفاعلين الآخرين (وهـو الطرف الثاني فى التفاعل وهو يمثل الآخـر Alter) أن يسلكوا بطريقة معينـة واضعا فى اعتباره ظروفهم المشتركة والعلاقة التى تربط بينهما ٠ وفى نفس الوقت فان الأنا يعرف أن الآخـر يكون توقعات خاصـة به عن

نفس الموقف • **ثانيا** : يجب أن توجد مجموعة من المعايير والقيم تحكم سلوك الفاعلين أو من المفروض أن تحكمه • والمحقق أن التوقعات المتبادلة توجد بسبب وجود القيم والمعايير • وليس من المهم ما اذا كان الأنا والآخر يعتمدان (فى تكوين توقعاتهما) على نفس المعايير أو على معايير مختلفة : الشىء الأساسى هو أن الأنا يعرف ما هى المعايير التى تحكم سلوك الآخر وفى نفس الوقت يعرف الآخر المعايير التى تحكم الأنا • فذلك يمكن الأنا من أن يكون لنفسه توقعا معينا عن سلوك الآخر ، ذلك انه يستطيع من خلال قواعد السلوك المعروفة أن يتنبأ بما يجب أن يفعله الآخر فى موقف معين • وأخيرا فان الجزاءات تمثل عنصرا **ثالثا** فى عملية التفاعل • فالأنا والآخر يثيبا بعضهما ويعاقبا بعضهما طبقا لتوافق أى منهم مع التوقعات المتبادلة او عدم توافقه •

ولقد نظر بارسونز الى هذه العناصر الثلاثة ــ التوقعات والمعايير والجزاءات ــ على أنها مكونات للأدوار roles. • ولقد اشتق بارسونز مفهوم الدور من تراث العلوم الاجتماعية الامريكية خاصة علم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعى • فقد اعتبر هربرت ميد مفهوم الدور فكرة أساسية فى تحليلة للعلاقات بين الفرد والمجتمع ، ويفسر هذا استخدام علماء الاجتماع الامريكيين على اختلاف مدارسهم الفكرية لمفهوم الدور استخداما مفرطا • وعندما انتقل مفهوم الدور الى نظرية بارسونز أصبح يشير الى « تحديد نظامى ظاهر أم ضمنى للتوقعات والمعايير والجزاءات التى تحكم سلوك فاعل فى ضوء الوضع الذى يشغله فى البناء الاجتماعى » • فهناك ــ على سبيل المثال ــ توقعات ومعايير الجزاءات تتعلق بسلوك كل فرد يشغل وضع الأب فى أى مجتمع •

وفى اعتقاد بارسونز أن الأنا يدخل فى علاقة التفاعل مع الآخرين فى ضوء دور معين ومن خلال هذا الدور ، والآخرون يدخلون معه فى علاقة التفاعل من خلال أدوارهم أيضا • فالتفاعل يتضمن بالضرورة فاعلين يؤدون أدوارا معينة ، ذلك لأنه عن طريق الأدوار فقط يصبح من الممكن بالنسبة للفاعلين أن يدخلوا فى علاقات مع بعضهم • ولما النظم

التى نعرفها ـ كالأسرة والمدرسة والمصنع ـ الا مركب من الأدوار المتكاملة والمنظمة ٠

ولقد وصف بارسونز هذا الاعتماد المتبادل بين الأدوار على انه موقف « تطابق مزدوج » ٠ فسلوك الأنا يعتمد على ما يتوقعه الآخر منه ، وعلى الجزاءات التى يمكن أن يوقعها عليه الآخر من جانبه ٠ وفى نفس الوقت فان سلوك الآخر يرتبط بما يتوقعه الأنا منه ٠ وفى اكثر حالاته تطرفا ، فان التطابق المزدوج يمكن أن يؤدى الى طريق مسدود بين الأنا والآخر ، لولا الأدوار التى تحدد التوقعات وتكسبها قدرا من الوضوح ، ومن ثم تحول « التطابق المزدوج » الى مبدأ للفعل يفتح مجالا لمزيد من التفاعل ٠

واخيرا ، يجب التأكيد على أن التفاعل ، كما فهمه بارسونز ، ما هو الا ضرب من التبادل ٠ انه تبادل للمعلومات عن التوقعات المتبادلة ؛ كما انه تبادل للجزاءات وبالتالى تبادل لمظاهر الاشباع والاحباط ٠ والحق أن فهم التفاعل على انه نوع من التبادل على كل مستوى من مستويات النسق الاجتماعى حيث يظهر هذا التفاعل ، يعد فكرة هامة فى نظرية بارسونز كما سنرى فيما بعد ٠

ثالثا : النسق الاجتماعى وبيئته

ان ما يميز النسق الاجتماعى عن بقية الانساق الفرعية هو التفاعل ٠ والنسق الاجتماعى ـ فى صورته المجتزأه من بقية الانساق الأخرى ـ هو كيان نظرى يتكون من خلال التفاعل بين أعضاء جماعة معينة ٠

وفى هذا السياق ، اكد بارسونز نقطة تعد محورية فى نظريته هى : أن لكل نسق بيئته ، وبيئة اى نسق من الأنساق الفرعية الأربعة تتكون من الأنساق الثلاثة الأخرى ٠ ومن ثم فان كل نسق فرعى يتفاعل ويتبادل العلاقات مع كل نسق من الانساق الأخرى ٠ فجميعهم يرتبط فى شبكة من الاعتماد المتبادل ، بالرغم من أن كلا منهم يبقى محتفظا بدرجة من الاستقلال بحيث يمكن تمييزه ـ على المستوى التحليلى ـ عن الأنساق الأخرى ٠

ويترتب على ذلك أن يكون من الممكن تحليل أى نسق من أنساق الفعل من خلال خمس نقاط مرجعية مختلفة · **فأولا** : يمكن الانطلاق من نسق الفعل نفسه ؛ وفى هذه الحالة فان لانساق الفرعية الأربعة تعد بمثابة فئـــات (أو مقولات) يمكن التمييز بينها كمكونات لنسق الفعل · **ثانيا** : يمكن الانطلاق من أى نسق من الانساق الفرعية · وفى كل حالة فان الانساق الثلاثة الأخرى تمثل بيئة النسق الذى يبدأ منه التحليل ·

وكما ذكرنا سابقا ، فان النسق الاجتماعى يضطلع بوظيفة التكامل داخل النظرية العـــامة للفعل · وهذا الجانب من نسق الفعل هـــو الذى يحوى الروابط التفاعلية بين الوحدات المكونة للنسق ، وكذلك متطلبـــات التواصل والتنظيم التى تتطلبها الأنماط المعقدة من التفاعل · ويشتمـــل هذا الجانب من نسق الفعل على الجهود التى يبذلها كل نسق من أنساق الفعل للمحافظة على التضامن والولاء ، ولتقليل الصراعات الى أدنى درجة ومقاومة الانحراف · بعبارة أخرى ، فان العوامل التى تربط بين العناصر المختلفة لأنساق الفعل وتنظيمها هى العوامل التى يتم التركيز عليها فى النسق الاجتماعى ·

وفيما يتعلق بعلاقة النسق الاجتماعى بالنسق العضوى فان النسق العضـــوى يعتبر نقطة التقـــاء بين القوى البيولوجية والفيزيقية اللازمة للفعل من ناحية ونسق الفعل ذاته من ناحيـــة اخرى · والاحاسيس هى التى تخلق العـــلاقات بين نسق الفعل والبيئة الفيزيقية ، بحيث تعطى للبيئة الفيزيقية معنى أو فائدة بالنسبة لنسق الفعل · وبصورة اكثـــر تحديدا ، فان النسق العضوى يســـاهم بصورة مبـــاشرة فى انتـــاج واستهلاك الفوائد أو السلع وتحويلها الى طاقة ذات فائدة لنسق الفعل · وهذا هو السبب فى أن العمل يعتبر شيئا هاما ، وكذلك التكنولوجيا التى توسع وتزود من مجال النشاط البشرى · فالنسق العضوى هو وسيلة النسق الاجتماعى للوصـــول الى البيئة المـــادية والفيزيقية والجغرافية والبيولوجية والتقنية ·

أما نسق الشخصية فهو النسق الرئيسى فى تكوين الدافعية اللازمة

للنسق الاجتماعى · فما يحتاجه النسق الاجتماعى من نسق الشخصية فى الواقع هو مجموعة من الاستعدادات والميول التى تقود الفاعلين نحو سلوك يلائم مصالح النسق ـ أى نحو القابلية الاجتماعية ، والتضامن واستدماج المعايير ، والقيم ، والايديولوجيات · وهذه الدافعية لا تتولد داخل النسق الاجتماعى ذاته كما عرفه بارسونز ، ولكنها تأتى من مجموع أنساق شخصية الفاعلين المشاركين فى النسق الاجتماعى ·

وأخيرا ، فان النسق الثقافى يزود النسق الاجتماعى بما أسماه بارسونز باكتساب الشرعية Legitimation · فمن خلال النسق الثقافى ، يستمد النسق الاجتماعى القيم والمعايير التى تساعد على خلق التضامن ، والولاء ، والضبط وتؤكد أن النسق الاجتماعى يتصف بقدر من الثبات النسبى عبر الوقت ·

وليس هناك مجال لمعالجة هذه العلاقات المتبادلة بصورة مفصله · ويكفى القول أن هذه العلاقات المتبادلة هى القاعدة التى أقام عليها بارسونز فكرته الأساسية عن التقاء التنشئه الاجتماعية مع عملية التشكل النظامى ؛ فقد ادت هذه العلاقات الى ترابط الجوانب السيكولوجية بالجوانب الاجتماعية ، والى وحدة نسق الفعل ككل ·

رابعا : مستويات تحليلية

ويمكن تطبيق نفس أسلوب تحليل الانساق الى أربعة أنساق فرعية على التنظيم الداخلى للنسق الاجتماعى · وفى هذه الحالة فاننا لا يجب أن نظر الى النسق الاجتماعى على أنه نسق فرعى بل يجب اعتباره نسقا للفعل يحوى بدوره أربعة انساق فرعية تؤدى وظائف التكيف وتحقيق الهدف ، والتكامل والمحافظة على النمط · ومع ذلك فعندما وصل بارسونز الى هذه النقطة ، فانه رأى انه من المفيد **أن نغير من مستوى التحليل · فبدلا من التحدث عن النسق الاجتماعى ، اتخذ من المجتمع وحدة للتحليل ، ومن ثم بدا يقسم المجتمع الى أربعة انساق فرعية** · ويعد هذا الفرق فى التحليل فرقا هاما ولا يجب اهماله على الاطلاق ·

والحقق أن عنوان هذا الفصل « النسق الاجتماعى والمجتمع » ليس عنوانا جزافيا ؛ وليس به أى نوع من المبالغة · فعلى عكس الكثير من علماء الاجتماع الذين استخدموا كلا المصطلحين (النسق الاجتماعى والمجتمع) بنفس المعنى ، وضع بارسونز تمييزا واضحا بين مفهوم النسق الاجتماعى ومفهوم المجتمع ، وهو تمييز أصبح جوهريا فى نظريته · والفشل فى أدراك هذا التمييز وفهمه يجعل الكثير من النصوص فى كتابات بارسونز غامضة ومتناقضة ·

ولمفهوم النسق الاجتماعى عند بارسونز معنى معين ومحدد · انه الشبكة الكلية من التفاعل التى من خلالها يرتبط فاعلان أو اكثر بحيث يؤثر كل منهم فى سلوك الآخر وبحيث يسلك كل منهم بصورة جمعية بكل الطرق الممكنة · ومع هذا فان تعريف النسق الاجتماعى ما هو الا اداة تحليلية ؛ انه يمثل وسيلة لفهم الواقع غير أنه لا يتساوى مع الواقع نفسه · انه يوجد فقط فى صورة بالغة التجريد وفى اطار تحليلى ، فهو مقولة فى النظرية العامة للفعل · ويقع تعريف بارسونز للنسق الاجتماعى على نفس المستوى من التجريد الذى يقع عليه النسق العام للفعل ، مادام النسق الاجتماعى يعتبر أحد مكونات النسق العام للفعل · انه فكرة استخدمها بارسونز استخداما تحليليا واسترشاديا ·

فأحد القضايا الرئيسية فى نظرية بارسونز تلك القضية التى تذهب الى أن مفهوم النسق الاجتماعى يمكن استخدامه فى تحليل الجماعات ، والتجمعات ، والنظم ، والاتحادات ، والحركات الاجتماعية بجميع اشكالها واحجامها · فالمشروع الصناعى ، والجامعة ، والطبقة الاجتماعية ، والمجتمع ككل ـ كل هذه الأشياء يمكن تحليلها كانساق اجتماعية ·

وفى مقابل مفهوم النسق الاجتماعى ، يوجد مفهوم المجتمع الذى يشير الى مظاهر الواقع الملموس · فعندما يتحدث بارسونز عن المجتمع ، فانه يشير الى تجمع فعلى يمكن تحديد هويته وموقعه وحدوده · فالمجتمع ـ بطريقة اكثر تحديدا ـ هو تجمع من الأفراد الذين حققوا درجة نسبيه من الاكتفاء الذاتى بحيث يستطيع أعضاؤه اشباع حاجاتهم الفردية

والجماعية وأن يعيشوا داخل اطاره · وعلى المستوى الامبيريقى فان المجتمع يمكن أن يكون دولة أو أمة ، وأحيانا امبراطورية أو حضارة · ولكن يجب أن نتذكر أن مفهومى المجتمع والنسق الاجتماعى فى أعمال بارسونز لا يشتملان على الثقافة · فالكثير من علماء الاجتماع استخدموا مفهوم المجتمع للاشارة الى المستوى الرمزى والمعيارى وكذلك الى مستوى التفاعل الاجتماعى والنظم · ولكن بارسونز استخدم كلا من مفهوم النسق الاجتماعى والمجتمع للاشارة الى التفاعل والنظم فقط ·

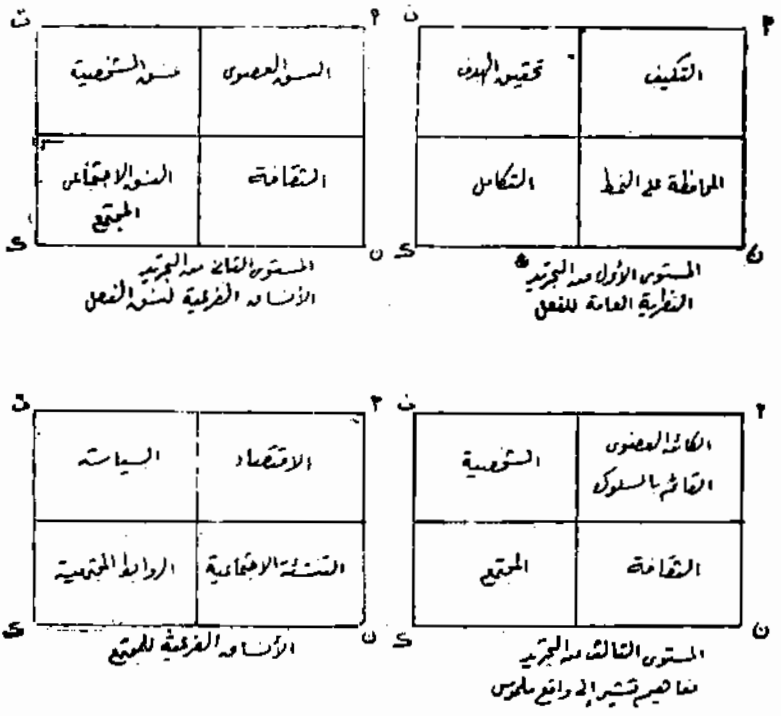

شكل (٥) ثلاثة مستويات من التجريد مع الانساق الفرعية للمجتمع

يتضح أن بارسونز يميز ثلاثة مستويات من التجريد · يتعلق الأول بالاطار التصورى للنظرية العامة فى الفعل ، ويشتمل على الأنساق الوظيفية الأربعة : التكيف ، وتحقيق الهدف والتكامل والكمون أو المحافظة على النمط · ويعد هذا المستوى أكثر المستويات عمومية وتجريدا لأنه قابل للتطبيق على أى نسق من انساق الفعل مهما كان نوعه · أما المستوى الثانى فهو المستوى الذى ميز خلاله بارسونز بين الأنساق الفرعية الأربعة

داخل نسق الفعل : النسق العضوى ونسق الشخصية والنسق الاجتماعى والنسق الثقافى · وأخيرا يأتى المستوى الثـــالث من التحليل ويتعلق بالمفاهيم التى تشير الى واقع ملموس · وينطبق نفس القول على فـكرة المجتمع الذى يمكن تقسيمه الى أربعة انساق فرعية كما سنرى · والشكل رقم (٥) يلخص هـذه المستويات الثلاثة · داخـــل تصنيف من تصانيف بارسونز المعتادة · وهو يوضح أيضـا تحليل بارسونز للتنظيم الداخلى للمجتمع ووظائفه ، الذى سوف نناقشه فيما يلى ·

خامسا : الانساق الفرعية للمجتمع

يمكن تحليل التنظيم الداخلى للمجتمع الى أربعة انســـاق فرعية ، طبقا لنموذج نسق الفعل · ومع أن الانساق الفرعية يتم اشتقاقها بطريقة تحليلية ، الا أنها تتوازى مع جوانب ملموسة فى الواقع · ففى داخـل المجتمع تتطابق وظيفة التكيف مع مجموعة من الانشطة التى تهتم بالانتاج والتوزيع · ويعد العمل الوسيلة الرئيسية التى يرتبط من خلالها المجتمع بالبيئة ، ويسعى الى البقاء بها ، واستغلالها والاستفادة منها · ولهـذا ففى اطـــار المجتمع ككل ، يتوازى التكيف مع كل الأنشـطة التى ترتبط بالاقتصاد أو النسق الاقتصادى الفرعى · ولا ترتبط الوظيفة الاقتصادية ــ فى استخدام بارسونز لها ــ ارتباطا صارما بالابنية والنظم الاقتصادية فقط ، وان كانت تتركز داخلها بصفة أساسية ·

أما تحقيق الهدف داخل المجتمع فانه يعنى تحقيق الأهداف الجماعية وتعبئة افراد المجتمع وموارده لتحقيق هذه الأهداف · واطلق بارسونز على هذا مفهوم السياسة Polity ويجب أن نؤكد على أن بارسونز قد استخدم هذا المصطلح بالمعنى العام ليشير الى كل اشكال اتخاذ القرارات وتعبئة الموارد · وبهذا المعنى لا يرتبط مفهوم السياسة بنظم الدولة فقط ، ولكنه يمتد ليشمل الأعمال التجارية ، والادارة ، والحركات الاجتماعية والسياسية ·

أما مجموع العمليات التى تسهم فى التنشئة الاجتماعية لأعضـاء المجتمع فانها تحقق وظيفة المحافظة على النمط داخـــل المجتمـع · فمن

خـــلال عملية التنشئة الاجتمـــاعية تنتقل الثقـافة الى الفاعلين ، ويتم استدماجها بحيث تصبح عاملا هاما فى دافعية سلوكهم الاجتمـــاعى · وتتركز هذه الوظيفة بصفة رئيسية فى الأسرة ، والنسق التعليمى ، بالرغم من أن وسائل الاتصال الجماهيرى ، والنقابات ، والاحزاب السـياسية تقوم أيضا بدور تعليمى ·

وأخيرا أطلق بارسونز على وظيفة التكامل داخل المجتمع اسـم مجموعة الروابط المجتمعية Societal Community · وهى تشتمـــل على مجموعة النظم التى تعمل على اقامة علاقات الاعتماد المتبادل التى تحتاج المجتمعات الى وجودها بين أعضائها وكذلك المحافظة على هذه العلاقات · وهذه النظم هى التى تقيم مبادىء التنسيق اللازمة لاستمرار المجتمـــع بدون كثير من الفـــوضى والصراع · ومجموعة الروابط المجتمعية هى مجال الضبط الاجتماعى ، غير انها تقوم على الاتفاق لا القهر · وتتمثل هذه الروابط المجتمعية ــ فى صورتها البنائية ــ فى القـــانون ، والنظم القضائية ، كما تتمثل فى الأنواع العديدة من التضامن ومشاعر المواطنة ·

سادسا : مجموعة الروابط المجتمعية

تساعد هذه التمييزات على توضيح ما يقصده بارسـونز بالتحديد بمجال البحث فى علم الاجتماع · ففى ضوء النظرية العامة فى الفعل ، ينحصر مجال الدراسة فى علم الاجتماع فى الوظيفة التكاملية · ونفس القول ينطبق على المجتمع ، لأن مجموعة الروابط المجتمعية هى الجانب التكاملى فى المجتمع ·

وفى اعتقاد بارسونز ، أن كل نسق من الأنساق الفرعية الاربعة فى المجتمع يقوم على دراسة فرع معين من فروع المعرفة العلمية الاجتماعية · فعلم الاقتصاد يدرس النسق الفرعى الخاص بالتكيف ، وعلم السـياسة يختص بدراسة النسق الفرعى المتعلق بتحقيق الهـــدف · أما النُسُـــق الفرعى الخاص بالمحافظة على النمط فانه يقع فى مجال علم النفس العام أو علم النفس الاجتماعى ، وربما فى مجال الأنثروبولوجيا أيضا · وهنا

نجد أن وظيفة المحافظة على النمط بصفة خاصة قد سببت بعض المشكلات بالنسبة لبارسونز ، فهو لم يؤكد الفرع الذى تنتمى اليه من فروع المعرفة الاجتماعية · أما نظرته لعلم الاجتماع فقـــد كانت محددة ؛ انه يدرس مجموعة الروابط المجتمعية كنسق فرعى · انه لا يهتم بكل جوانب المجتمع ؛ ولو فعل ذلك فانه سوف يبعد علم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم النفس والانثروبولوجيا ، وهو امر يتعارض مع مبدأ بارسونز عن تعدد العلوم الاجتماعية · لقد اكد بارسونز على أن جانبا واحدا فقط من المجتمـــع هو الذى يبرر وجود علم الاجتماع كعلم مستقل ـ وهذا الجانب هـــل التكامل او مجموعة الروابط المجتمعية ·

ويبدو أن بارسونز يميل الى الربط أحيانا(٣) بين مجموعة الروابط المجتمعية وفكرة دوركايم عن التضامن ، وبين نمطى التضـــامن ـ الآلى والعضوى ـ الذى ميز بينهمـــا دوركايم · والحقق أن مجموعة الروابط المجتمعية تتكون من كل الروابط التى تنمى التضامن وتربط أعضاء المجتمع وتجعل كلا منهم يعتمد على الآخر ، محققه بذلك ضربا من التماسك النسبى للمركب الذى يشكلونه بطريقة جمعية · وهذا التعريف لعلم الاجتمـــاع وموضوعه يضع بارسونز أكثر من أى عالم اجتماع معاصر داخل تراث نظرية دوركايم · ويعنى بارسونز بالروابط المجتمعية ـ اذا أردنا صورة اكثر اقترابا الى الواقع ـ النظم ، والطبقات الاجتماعية ، والتنظيمات ، والحركات الاجتماعية ، والجماعات الضاغطة ··· الخ هذه الأشـــياء التى تجمع أفراد المجتمع سويا والتى من خلالها يدافعون عن مصالحهم ويشبعون حاجاتهم ويحققون غاياتهم ·

ففى المجتمع كما فى أى نسق من أنساق الفعل ، تكون الانســـاق الفرعية مستقلة ومعتمدة على بعضها فى آن واحـــد ، ولهذا فان فروع المعرفة التى تدرسها مستقلة أيضا ولكن بينها علاقات متبادلة فى ذات الوقت · ومن الممكن ـ بل من الضرورى ـ أن نميز العلـــوم الاجتماعية المختلفة ، ولكن لا يجب أن ننسى أو نهمل فى نفس الوقت العلاقات التى تربط بينها ·

من الواضح هنا أن بارسونز قد أقتنع فى النهاية بنظرة محددة لعلم الاجتماع اكثر من غالبية علماء الاجتماع الاوربيين والأمريكيين · فلم يهتم أى منهم اهتمام بارسونز بالحاجة الى التغلب على مظاهر الاختلاط بين العلوم الاجتماعية · وفى ذات الوقت أصر اكثر من أى عالم آخـــر على وحدة العلوم الاجتماعية والروابط الضرورية بينها ·

سابعا : انساق التبادل

تتمتع مجموعة الروابط المجتمعية كنسق من أنساق الفعل بقدر من الاستقلال النسبى ؛ فهى تخلق باستمرار شبكة من الحدود التى تميزها عن الأنساق الأخرى التى تكون بيئتها · وفى نفس الوقت فان مجمـــوعة الروابط المجتمعية تمثل نسقا مفتوحا يتفاعل مع بيئته · فهو على اتصال مستمر مع الأنساق الثلاثة الأخرى التى تكون هذه البيئة بالنسبة له : وأعنى الاقتصاد والسياسة ونظم التنشئة الاجتماعية · فهناك شبكة معقدة من التبادل بين كل هذه الأنساق الفرعية الاربعة ·

ووجه بارسونز اهتماما خاصا لجانبين اعتبرهما ضروريين لشبكة التبادل هذه · **أولا** : لقد اعتقد بارسونز ــ من خـــلال تاثره بالنظرية الاقتصادية خاصة أعمال ليونتيف Leontif ــ انه من الممكن أن نفسر التبادل بين كل زوج من الأنساق فى ضوء خريطة المدخـــلات والمخرجات input - output table · فـكل نسق يستقبل من كل نسق من الأنســـاق الثلاثة الأخرى بعض الأشياء اللازمة لعمله الوظيفى (المدخلات) · وفى المقابل يقدم كل نسق للانساق الأخرى نتاج نشاطه (المخرجات) · ولقد دفع بارسونز هذه المماثلة خطوة أخرى ؛ ففى اعتقاده أن هناك تبـــادلا مزدوجا بين أى نسقين : تبادل **لعوامل الانتاج** (المدخلات) **وتبال للمنتجات** (المخرجات) · ولهذا فان كل نسق فرعى داخل المجتمع يشـــبه الوحدة الانتاجية تتخصص فى انتاج انشطة كاستجابة لبعض الحاجات المحددة ، ويتخلق هنا نوع من السوق يتبادل فيه كل نسق فرعى منتجاته الخاصة مع الأنساق الأخرى ·

ثانيا : أكد بارسونز على الأهمية النظرية لوسيلة التبادل بالنسبة

للنسق الذى من هذا النوع · فمثل هذا النسق لا يمكن أن يوجد دون الرموز التى تسهل الاتصال والتبادل · ولأن كل نسق من الأنساق الفرعية يدخل فى شبكة التبادل ، فان بارسونز ذهب الى ضرورة وجود أربع وسائل للاتصال ، كل منها يعتمد على نسق فرعى من الأنساق الأربعة · وكان التحليل الاقتصادى أيضا هو الذى دفع بارسونز الى تطوير مخططه عن وسائل الاتصال الأربعة · فالنقود قد تلائم هذا النموذج، طالما أن الاقتصاديين قد درسوا وظائفها كوسيلة للتبادل دراسة عميقة ·غير أن بارسونز قد وضع التحليل الاقتصادى فى منظور جديد · فأولا حدد النقود على أنها الرابطة التى تربط بين الاقتصاد والمجتمع · فالاقتصاد يعتبر نسقا فرعيا بالنسبة للمجتمع بفضل شبكة التبادل التى تقيمها النقود والتى تمكن النسق الاقتصادى من مواصلة الحياة مع الانساق الاخرى فى المجتمع · واكد بارسونز أيضا على الطابع الرمزى للنقود ، ذلك الطابع الذى جعل النقود تشبه اللغة · فالنقود تحدد قيمة الشىء أو الخدمة ؛ فهذه القيمة تقتضى استجابة معينة يتم التعبير عنها فى صورة نقدية · ولهذا فان بارسونز كان ينظر الى النظام النقدى برمته على أنه « كود » ، بمعنى مجموعة القواعد التى من خلالها يتم تداول السلع والخدمات ·

فمن داخل علم الاجتماع الاقتصادى بدأ بارسونز يستوعب الجوانب الرمزية المختلفة للنقود ووظائفها فى التفاعل بين الاقتصاد والأنساق الفرعية فى المجتمع · واستخلص بارسونز من هذا أن وسيلة التبادل يجب أن توجد منطقيا فى كل نسق من الانساق الثلاثة الأخرى لكى تؤدى مجموعة من الوظائف تتماثل مع وظيفة النقود · ومن هنا بدأ مخططه عن وسائل التبادل الأربعة ·

وفيما يتعلق بالسياسة فان بارسونز رأى أن الشىء الذى يناظر النقود هو القوة Power · وعرف بارسونز القوة بأنها القدرة على اجبار الفاعلين داخل المجتمع على الوفاء بالالتزامات المفروضة عليهم

لتحقيق الأهداف الجماعية ، بحيث يمكن استغلال موارد المجتمع لتحقيق غايات محددة(٤) · والقوة تعتبر شيئا مختلفا اختلافا كليـــا عن السلطة authority · حيث نظـــر بارســـونز الى الســـلطة باعتبـــارها خاصية تتعلق بأوضاع معينة تتراكم من خلالها القوة ؛ فالذى يحتل وضعا معينا للسلطة يمتلك قدرا من القوة يمكن ان يستخدمه ويتـــداوله مع الآخرين · فالسلطة نفسها لا يمكن تداولها ؛ انهـــا مجموعة المبـــادىء المصاغة داخل النظم والتى تحدد حقوق المشـــاركة فى نسق القوة(٥) · هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فان القوة فى مفهوم بارسونز غير ثابتة وغير مستقرة · انها على العكس من ذلك أداة للتبادل ـ مثلهـــا مثل النقود ـ لها قيمة رمزية مع مجموعة من المبادىء الخاصة بهـــا ، وهى تتداول من داخل نسق السياسة بين الأنساق الفرعية الأخرى ·

أما الوسيلة الثـــالثة للتبـــادل فأطلق عليهـــا بارسونز **التأثير** influence · ومصدر هذه الوسيلة هو نسق التكامل ، بمعنى مجموعة الروابط المجتمعية · والتأثير هو **القدرة على الحصول على الموافقة أو القبول او الولاء عن طريق ممارسة الاقنـــاع** persuation · ويختلف التأثير عن القوة فى أنه لا يعتبر صورة من صور الاجبار كما أنه لا يتطلب أى ضرب من ضروب القسر force · ويرتبط التأثير بمقدار الهيبـــة التى يتمتع بهـــا الشخص الذى يمتلك التأثير ، أو الذى فى مقدوره أن يدعو الى التضامن · والتأثير مثله مثل النقود والقوة يتمتع بقدر من الحركة ، بمعنى انه يسهل عملية التبادل التى يمكن من خلالها أن يتحرك وأن يتداول · ومثله مثل النقود والقوة أيضا يمكن للتأثير أن يزداد أو يتقلص طبقـــا لدرجة استخدامه من خـــلال الأفـــراد الذين يمارسونه والجماعات التى تمتلكه ·

أما الوسيلة الأخيرة للتبادل فهى ما أطلق عليها بارسونز اســـم الالتزامات Commitments بالمعايير والقيم · فمن خلال هذه الالتزامات تنتقل المقومات الثقافية الى الواقع الاجتماعى وتدخل فى نطـــاق علاقات التبادل · ويمكن النظر الى كل فاعل من الناحية النظرية على أنه يجب أن

يكتسب الالتزامات التى تربطه ببعض المعايير والقيم الخاصة بثقافة معينة · وهذا هو الذى يجعله ينتمى الى مجتمع معين ، والذى يجعله يعى بهذا الانتماء · وبعد اكتساب هذه الالتزامات التى تجعله يتكامل مع مجتمعه ، يستطيع الفاعل أن يستخدمها كضمان للحصول على حاجاته أو رغباته فى الحصول على قدر من التأثير والقوة والنقود ·

والوظيفة التى تقوم بها هذه الوسائل الاتصالية الأربعة هى تأكيد استمرار تداول ما أسماه بارسونز بالموارد resources داخل المجتمع ـ وتشتمل على كل من عناصر الانتاج والمنتجات داخل كل نسق فرعى · وتتلخص عملية التبادل المعقدة فى الشكل رقم (٦) · ويوضح هذا الشكل التبادل المزدوج (مشارا اليه بأربعة أسهم) بين كل نسق من الأنساق الفرعية : تبادل لعوامل الانتاج فى كلا الاتجاهين وتبادل للمنتجات فى كلا الاتجاهين · وأطلق بارسونز على كل زوج من الأزواج التبادلية الستة « نسق التبادل » · ويمكن أن نحدد بدقة ما يتم تبادله بين كل زوج من الأنساق الفرعية · فكل ضرب من ضروب التبادل المزدوج يشتمل على تبادل لنوعين من وسائل التبادل بحيث يكون كل نسق مصدرا لاحدى هاتين الوسيلتين ، وكذلك على تبادل للمنتجات الخاصة بكل نسق · ولنأخذ على سبيل المثال أحد أنساق التبادل الموضحة فى شكل (٦) وليكن « نسق تعبئة الموارد resource mobilization system فنسق السياسية (الذى لا يقتصر على الدولة فقط) يستخدم رصيده من القوة بوسائل عديدة ليحافظ على انتاجية النسق الاقتصادى ويزيد منها · وفى المقابل يستقبل السلع والخدمات التى ينتجها النسق الاقتصادى ويتحكم فى توزيعها على الأفراد والجماعات داخل المجتمع · وسوف نأخذ وقتا طويلا اذا استفضنا فى شرح أنساق التبادل الخمسة الأخرى الموجودة فى شكل (٦) ؛ ولكنها سوف تناقش بتفصيل أكثر فى الفصل القادم على أى حال(٦) ·

وجدير بالذكر أن بارسونز قد ناقش هذا المجال الواسع من التفاعل والتبادل تحت عنوان « ديناميات التوازن الاجتماعى »(٧) · ويقصد بارسونز من استخدامه لهذا التعبير الذى يبدو وكأنه متناقض أن يؤكد

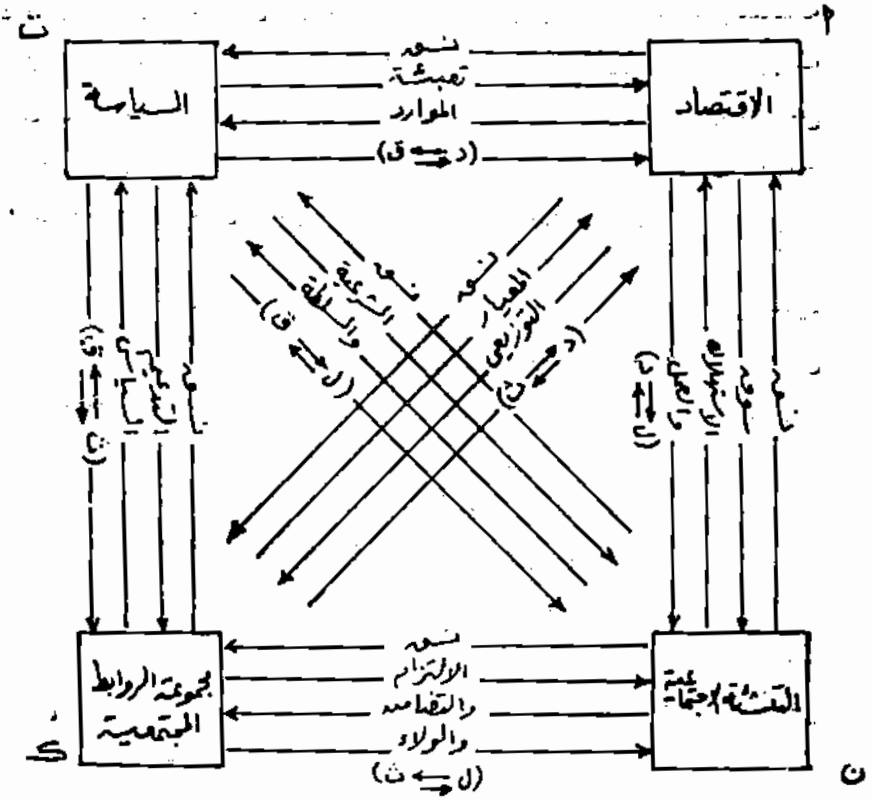

وسائل التبادل بين الانساق :

د : النقـــود ث : التـأثير

ق : القـــوة ل : الالتزامات

شكل (٦) أنساق التبـادل فى المجتمع

أن المجتمع ـ مثله مثل أنساق الفعل التى ناقشناها فى الفصل السابق ـ هو شىء حى متحرك ومتغير · فالتغير ـ مثله مثل التفاعل ـ يكون جزءا من طبيعة المجتمع · وفى هذا السياق يأخـــذ التغير شكلين رئيسيين : أشكال التبادل ذاتها ، والسلسلة اللامتناهية من التكيف واعادة التكيف التى تترتب على مظاهر الاضطراب التى تصاحب أشكال التبادل · حقيقة انه يمكن تصور نسق اجتماعى خال من الاضطرابات من الناحية النظرية ؛ فمثل هذا النسق يجب أن يحقق توازنا بين أنساق التبادل الستة · غير أن مثل هذا النسق يتعذر وجوده فى الواقع ، ذلك لأن أشـــكال التبادل يترتب عليها بالضرورة بعض التعديلات والاضطرابات فى واحد أو اكثر

من الأنساق البنائية · ولذلك يمكن النظر الى التوازن ـ كما استخدمه بارسونز ـ أما على أنه شيء واقعي أو على أنه شيء مرغوب فى تحقيقة · فمفهوم التوازن هو ببساطة مفهوم استرشادى ، بمعنى أنه نقطة انطلاق نظرى ، يفيد فى تفسير التغيرات داخل انساق الفعل ·

ثامنا : التغير البنـــائى

من الضرورى التمييز بين تغير النسق ذاته والتغير الذى يظهـــر داخـــل النسق · فالعمليـــات التى توصف بانهـــا « ديناميات التوازن الاجتماعى » لا تمثل تغيرا جوهريا · انها الوســـائل التى يستطيع من خلالها المجتمع أن يحقق وظائفه دون تغيرات بعيدة المدى فى بنائه · ومن ثم فلا يجب الخلط بين هذه الديناميات وبين التغير الاجتماعى · ويظهر التغير الاجتماعى ـ فى ضوء نظرية بارسونز ـ فى صورتين : فيما أطلق عليه بارسونز التغيرات البنائية ، وفى شكل تطور بعيد الأجل ·

والتغيرات البنـــائية هى تغيرات هامة فى التنظيم والأداء الوظيفى للمجتمع أو لبناء فرعى أو نسق فرعى منه ، بحيث تتحرك (الوظائف) من نمط اجتماعى الى آخر أو من شكل اجتماعى الى آخر · ومن الأمثلة على مثل هذه التغيرات تحول المجتمع التقليدى الى مجتمع صـــناعى ، والمجتمع الاقطاعى الى مجتمع برجوازى ، والمجتمع الرأســـمالى الى مجتمع اشتراكى ·

ولكن ما هى مصادر التغير البنائى ؟ وجد بارسونز أنه من الأفضل التمييز بين التغيرات التى تأتى من خارج المجتمع والتغيرات التى تظهر داخله · والعوامل الخارجية فى التغير يمكن أن تتخذ أشكالا متعددة · ويمكن الاشارة الى التغيرات الوراثية فى الكائن العضـــوى ، والتنوع فى البيئة الفيزيقية والطقس ، والتغيرات التكنولوجية · ولقد أشـــار دوركايم ـ على سبيل المثال ـ فى تحليله لتقسيم العمل الى تأثير العوامل الديموجرافية على ما أسماه بالكثافة المعنوية والتى تعد بدورها عاملا هاما فى تقسيم العمل ·

لقد قصر علماء الاجتماع المصادر الخارجية للتغير على المصـــادر التى أشرنا اليها توا · وأضاف بارسونز أنه من الضرورى بالنسبة لأى نسق أن نضع فى اعتبارنا عوامل التغير الخارجية التى تتولد فى الأنساق الأخرى التى تكون بيئة هذا النسق · فعلى سبيل المثال فان التغيرات التى تحدث فى نسق الشخصية يمكن أن تؤثر بصـــورة طبيعية فى النســق الاجتماعى · كما أن التنويعات التى تحدث فى العالم الثقافى للقيم والرموز يمكن أن تؤثر على المجتمع ، حتى وان لم تظهر هـذه التغيرات الثقافية داخل المجتمع نفسه ·

أما عن العوامل الداخلية فانه من الصعب حصرها وتعديدها كما فى العوامل الخارجية · ومن العوامل الداخلية التى أولاها بارســـونز أهمية خاصة الدور الذى تلعبه التوترات داخل المجتمع · وتمثل التوترات بعض الصعوبات الداخلية ، ومظاهر التناقض ، والانقسامات ، ومظاهر عدم التكيف التى تمثل عقبة أمام الأداء الوظيفى للنسق وتسبب له بعض الاضطراب وربما جعلته أقل كفاءة · ويوجد داخل كل مجتمع دائما بعض التوترات ، وهذه التوترات ذات قيمة ايجابية لأنها تعتبر مصدرا للحركة والتجديد · ولكن قد يحـدث فى بعض الأحيان الا تجد هـذه التوترات أساليب للتعبير عن نفسهـــا · ومن ثم يتكون مخزون منهـــا ، لا يمكن التخفيف منه بطريقة ايجابية · وعندما يصـــل هذا المخزون الى مرحلة الامتلاء فانه يحدث فى النهاية تغيرا بنائيا يصاحبه قدر من العنف ·

وغالبا ما يبدو التوتر على أنه رد فعل داخلى للمصادر الخارجية للتغير · فالعوامل الخارجية تساهم فى التغير من خلال التوترات الداخلية التى تثيرها · فالتغير التكنولوجى يؤدى ــ على سبيل المثـــال ــ الى خلق أشكال من عدم التكيف داخل تنظيم العمل ، متسببا بذلك فى حدوث بعض التوترات التى تؤدى بدورها الى تغير بنائى · والتوترات هنا تعمل كوسيلة لنقل تأثير العوامل الخارجية ، فضلا عن أنها تضاعفها وتزيد من معدلها عبر الوقت ·

ومع ذلك فان العوامل الخارجية والداخلية لا تؤدى فى حد ذاتهـا

الى التغير • فقد توجد مثل هذه العوامل فى بعض الأحيان دون أن يظهر التغير • ذلك لأن القوى التى تعمل على التغير داخل المجتمع تظل أضعف من القوى التى تؤدى الى التوازن ، ومن قوى الضبط الاجتماعى • فلابد من توفر بعض الشروط لكى يتحول التوازن من حال الى حال • **اولا :** يجب أن تكون التوترات داخل المجتمع من القوة بحيث تولد دافعية التغير وتحافظ عليها • **ثانيا :** يجب أن تتطور مجموعة من الوسائل لتحطيم أو ازالة مقاومة أولئك الذين من مصلحتهم المحافظة على الوضع القائم • والا فسوف تكون هناك مخاطرة بأن تخلق التوترات ـ فى مواجهة قوى الضبط ـ ضربا من السلبية أو أشكالا من العداء غير المباشر • **ثالثا :** من الضرورى أن يظهر نموذج للمجتمع على درجة من الوضوح والواقعيـــة ويمكن تحقيقه • فبدون هذا النموذج فان قوى التغير تحـــدث استنزافا سريعا دون أحداث أى فعل مؤثر • **رابعا :** يجب أن تظهر بسرعة مجموعة من أشكال الجزاء ، بحيث تثاب أشكال السلوك الجديدة فى ضوء معايير جديدة ، تحاول تحطيم المعايير القديمة •

وأضاف بارسونز ظرفا أخيرا : فيجب أن تصـــل قوى التغير الى أعلى درجة ممكنه داخل التدرج السيبرنطيقى ، بحيث تصل الى مستوى الرموز والقيم • فهنا تكمن أعتى قوى الضبط • وبالتالى فانه اذا لم تصل التوترات الى عالم القيم بحيث لا تمسه قوى التغير ، فانه من المحتمل أن تسيطر عليها العوامل التى تقاوم التغير • ويجب على أساليب الجـــزاء الجديدة ونماذج المجتمع الجديدة أن تنطلق من مجال القيم كمـــا كانت تفعل سابقتها •

ولا تعتبر التغيرات البنائية الا احـــدى الاستجابات الممكنة التى تترتب على ظهور التوترات فى المجتمع • فاذا لم تتحقق الشروط (الظروف) التى تؤدى الى التغير ، فان المجتمع يجد أساليب أخرى لاستبعادها • فتستطيع قوى الضبط فى بعض الأحيان أن تنجح فى حل التوترات خلال عمليات التوازن البسيطة ـ حيث يتم تكييف الظـروف الحـــالية بحيث تضعف تأثير قوى التغير اضعافا كبيرا • أما الاحتمال الثانى فانه بالرغم

من كبت قوى التغير ، فانهـا يمكن أن تعاود الظهـور فى أشكال أخـرى وأحيانا بقـوة أكبر · ومن الممكن أيضا عزل قوى التغير بحيث لا تؤثر على بقيـة أجزاء النسق ـ فمن الممكن تحويلها الى أشـياء هامشية · وأخيـرا فانه لو كانت التوترات شـديدة ولم تحـدث التغيرات المرغوب فيها ، فان المجتمع قد ينتهى كأن يختفى ككيان مستقل ، ويدب فيـه سوء التنظيم ، ويندمج فى مجتمع آخر أو يهزم بواسطة مجتمع آخر ·

هذا باختصـار هو أسلوب بارسونز فى تناول التغير الاجتماعى · انه لم يعـط له مكانا جوهريا فى نظريته كما يذهب الكثيرون من نقاده ، غير أنه من غير الانصاف القول بأنه أهمل التغير اهمـالاً كاملاً · فضلاً عن أنه فى أعماله الأخيرة ، اشتق لنفسه اتجاها تطوريا جديدا · فالتطور بعيد المدى ـ فى نظرة ـ يمثل صورة أخرى للتغير البنائى ·

تاسعا : تطـور المجتمعـات

تابع بارسونز تراث الآباء المؤسسين لعـلم الاجتمـاع الذى يتبنى مدخـلاً تطوريا أو تاريخيا عاما ـ ومنهم دوركايم ، وسبنسر ، وفيبر ، وزميارت وماركس · فقد اهتم ـ تحت تاثيرهم ـ بمشكلة تطور المجتمعات خلال العصور ، والأطوار التى تمر بها الحضارات ، والحركات الكاسحة فى التاريخ · فمن خـلال الاتصـال بتراثهم أصبح بارسونز مقتنعا بأن أعمالهم غيـر مكتملة ، لأنهم لم يمتلكوا الاطـار التصـورى والنظرى الذى يمكنهم من فهم الاتجاهات العامة فى التـاريخ والمراحـل الرئيسية للتطور البشـرى الاجتمـاعى · ويعتقد بارسونز أنه من خـلال الاطار النظرى الذى طـوره فى أعماله المبـكرة ، يستطيع أن يعيـد النظـر فى قضايا التطور التى قدمها الآباء المؤسسون ·

فسر بارسونز التطور من خـلال قانونين رئيسيين : قانون التطور العام الذى يحدد المبـادىء التى يشتمل عليهـا التطور ؛ وقانون التدرج السبرنطيقى ، الذى يحدد اتجاه التغير · وأخـذ بارسونز القانون العام للتطور من عـلم البيولوجيا ، وهو اكثـر العلوم المتصلة بالانسان تقدما

فى تحليل التطور وأسبابه · ففى داخل علم البيولوجيا ظهرت نظريات التطور فى القرن التاسع عشر ، وحافظ علم البيولوجيا على تقدمه فى هذا المجال اذا قورن بالعلوم الاجتماعية ، وفى رأى بارسونز أنه لا توجد أى صعوبة فى استعارة القانون العام للتطور من البيولوجيا ، لأن هناك بعض المظاهر المشتركة بين مبادىء التطور ومبادىء النظرية العامة فى الفعل · ففى التاريخ الاجتماعى كما فى تاريخ الكائنات العضوية ، أظهرت الأنساق التى حافظت على بقائها وأصبحت اكثر تطورا ، أظهرت قدرة اكبر من الأنساق الأخرى فى التكيف مع البيئة والتغيرات التى تطرأ عليها · فالقدرة على التكيف تعتبر واحدة من أهم المبادىء التى تقوم عليها كل أشكال الحياة ، سواء عند الحيوان أو النبات أو فى المجال النفسى أو الاجتماعى · فالنسق ، مهما كان نوعه ، يستمر فى الوجود ويتطور ويرتقى بدرجة قدرته على اعادة التكيف باستمرار مع بيئته ومع المواقف الجديدة ، فالمبدأ الرئيسى للتطور اذن هو القدرة على التكيف العام ·

وتتضمن هذه القدرة على التكيف بدورها عمليتين هامتين تكمنان خلف كل أشكال التغير ـ وهما التباين والتكامل · فالتباين البنائى المستمر يمكن المجتمع من أن يستجيب لكل حاجاته استجابة تامة · ولأن أجزاء المجتمع تصبح اكثر تباينا فانه يجب عليه فى نفس الوقت أن يشتق بعض أنماط التكامل لكى ينسق بين الأجزاء العديدة ـ والجديدة التى يتكون منها · ويمنح ازدياد التباين مع ما يصاحبه من تكامل ؛ يمنح القدرة على التكيف الضرورية لتطوره طبقا لحاجاته ولضرورات بيئته ·

ولقد تحدثنا سابقا عن القانون الثانى للتطور ـ وأعنى مبدأ التدرج السبرنطيقى · وفى ضوء هذا المبدأ يصبح التغير فى النسق الثقافى هو أهم شىء فى التطور بعيد المدى الذى يحدث خلال أجيال عدة · فالثقافة لها تأثير حاسم على النسق الاجتماعى والانساق الأخرى لأنها تأتى فى المقدمة فى تدرج الضوابط · فالتغير على المستوى الثقافى من الممكن أن يؤثر تأثيرا عميقا ولفترات طويلة ·

ومن خلال هذين القانونين ـ ميز بارسونز بين ثلاثة مراحل رئيسية فى التطـور الاجتماعى : المجتمعات البدائيـة ، والمجتمعات الوسطى ، والمجتمعات الحديثة(٨) · وفى ضوء مبـدأ التدرج السبرنطيقى تم تمييز هذه الأنماط الثلاثة من المجتمعات فى ضوء المعيار الثقـافى · فالانتقال من المجتمعات البدائية الى المجتمعات الوسطى تميز بظهور الكتابة · ويمثل ظهور الكتـابة ثورة هامة لأنها ساعدت على استقرار الاطار الثقافى · فبمجرد تدوين اللغـة يمكن أن تتطور مجموعة من قواعد اللغة والاعراب الاكثر دقة ، وتصبح كلماتها اكثر ثراء · ومن خلال الكتابة أيضا يمكن للأحـداث والافكار والمشاعر والعواطف أن تتبلور وتتجسد · فبفضـل الكتـابة يستطيع الانسان أن يجسد فكره ، وأن يسقط هـذا الفكر خارج ذاته ، ويحيله الى ضرب من المـادة الخام التى يمكن التعامل معهـا · وبنفس الطريقـة ، تمكن الكتـابة المجتمعـات البشرية من أن تطل على تاريخهـا الماضى · فالتراث الشـفاهى لا يحفظ الذكريات الا لأجيـال قليلة ؛ أما الوثائق فانها تمنح المنظـور التـاريخى قدرا من اللانهائية · وباختصار فانه من خلال الكتـابة تصبح الثقافة اكثر استقرارا وتنفصل من وسائل الاتصال اليومى التى اعتمـدت عليها اعتمادا كليا · ومن ثم أصبحت الثقـافة اكثر استقلالا عن الأحداث ، واقل اعتمادا على أحداث الصـدفة ، وأصبحت تشكل نسقا فى حـد ذاتها · لقـد أحدثت الكتابة نوعا من التباين الواضح بين الثقافة والأنساق الأخرى للفعـل ، وادعى بارسونز أن ذلك يمكن أن يكون دليلاً على التطور ·

أما الانتقال من المجتمعـات الوسطى الى المجتمعات الحديثة فقـد تميز بظهور القـانون والنظم القضائيـة كالمحاكم والقواعد الاجرائيـة الحاسمة · وساعد القانون الثقـافة أيضا على أن تصبح أكثر استقرار ودواما · ويحـدد القانون قواعد ومعايير السلوك تحديدا دقيقـا ، كما يحـدد التطبيق الواقعى للقيم العامة ، والمبـادىء النظاميـة ، والأفكار والمثل · ومع ظهور القـانون أصبحت العادات الجماعية أقـل خضوعا للتأثيرات القصيرة المدى ، واقـل ارتباطا بالأحداث العابرة · فعنـدما ظهرت الشـرائع ، وتمت ، صياغة القـانون ، أصبح من الممكن التعبير

عن الثقافة بطريقة اكثر دقة فى شكل قواعد مكتوبة · وفى هـذه الحالة ظهرت الحـاجة الى متخصصين لتفسير القـواعد ، يجب ان يكونوا هم انفسهم ملتزمين بها ·

وبناء على ذلك فان التطور الاجتماعى فى رأى بارسونز اتخذ شكل تقوية مستمرة للثقافة فى الحياة الاجتماعية البشرية · لقد ارتبط بالتقدم نحو ظهور النسق ثقافى الأكثر تباينا والأكثر استقرارا فى ذات الوقت مع غناء واتساع فى المضمون ·

ولكن هل استخدم بارسونز فكرته عن التدرج السبرنطيقى استخداما محدودا ؟ لقد استخدم فقط تدرج الضوابط وترك تدرج العوامل التكيفية · لقـد زودت فكرة السبرنطيقا ـ فى شكلها الـكلى الذى يسمح بوجـود تأثيرات صاعـدة لظـاهر التكيف وتأثيرات هابطـة للضوابط ـ زودته بنموذج معقـد قادر على أن يستوعب جوانب كثيرة من الواقع · وتقترب نظرية بارسونز فى التطـور من نظرية سبنسر ، ولكن يبدو أنه لم يقدم اسهاما أصيلا فى التطورية الاجتماعية ·

ومع ذلك فان نظرية بارسونز فى التطـور تلقى الضوء على نظريته ككل · فمن الواضـح ـ وكما اكـد بارسونز بنفسـه مرات عديدة ـ أن نظريته تهتم فى المحل الأول بالمجتمعات المعقدة ، أى اكثر المجتمعات تقدما من ناحيـة التطور الاجتمـاعى · والمحقق أن الاطار النظرى الذى قدمه بارسونز ينطبق على المجتمعات الاكثر تباينا والتى ظهرت فيهـا بوضوح التمييزات بين الثقـافة والنسق الاجتمـاعى ، بين الـدين والممارسة السياسية ، بين الاقتصـاد والسياسة وبين القانون والأخلاق · ومن ثم فان النموذج التحليلى للتباين قد تم اشتقاقه من تحليل المجتمعات المعقدة وهو ينطبق أولا وقبل كل شىء على هذه المجتمعات ·

ويعتقد بارسونز أن نظرية علم الاجتمـاع يمكن أن تتطـور فقط ، كلما أصبحت الأنساق الفرعية متباينة بدرجة كافيـة تمكننا من تحليلها · ولقد وجه النقد الى النموذج التصورى والنظرى الذى قدمه بارسونز على

أساس أنه لا ينطبق على المجتمعات البدائية ، ومن ثم فانه لا يتصف بالعالمية · ولكن فى رأى بارسونز ، أن ذلك فى حد ذاته يعتبر برهانا على أن المجتمعات المتقدمة تعتبر المادة الأساسية للفكر والتحليل السوسيولوجى ·

عاشرا : علم الاجتماع المقارن

فى اعتقاد بارسونز أن التطورية هى أساس علم الاجتماع المقارن · فقد اقتنع بأن المجتمعات لا يمكن أن تقارن الا اذا وضعت داخل اطار تطورى ، يمكننا من وصف « مجتمع » ما على أنه أكثر تطورا من مجتمع آخر · فالمقياس التطورى الذى يقيس التطور عبر الزمن يضع معيارا للمقارنة بين المجتمعات ·

ويثير علم الاجتماع المقارن مشكلتين منهجيتين : **فأولا** يجب أن نحدد داخل مجتمع معين ما هى الأبنية والعناصر التى من المهم أن تقارن بأبنية وعناصر أخرى داخل مجتمع آخر · بعبارة أخرى ما هى الجوانب التى تتطابق مع بعضها من الناحية النظرية ، وما هى أوجه التشابه ذات الدلالة النظرية ؟ **وثانيا** : من الضرورى بنفس القدر أن نكون قادرين على أن نحدد أهمية الفروق التى يمكن ملاحظتها فى أبنية مجتمعين أو اكثر · والمنظور التطورى للمجتمعات يحل هاتين المشكلتين من خلال توضيح المكونات التى تتغير فى مجرى التاريخ وكذلك توضيح المراحل الرئيسية فى تطور المجتمعات · ويمكننا ذلك من العثور على أوجه للمقارنة بين المجتمعات فى مراحل مختلفة فى العملية التطورية ·

وهذه الرابطة بين علم الاجتماع المقارن والتطورية تعد رابطة هامة فى نظر بارسونز ، ذلك لأنه يعتقد أن الدراسات المقارنة تعتبر دراسات ضرورية لكى تكتسب العلوم الاجتماعية الطابع العلمى · فمقارنة المجتمعات والتجمعات فى العلم الاجتماعى تضاهى التجربة المعملية فى العلوم الطبيعية · فعالم الاجتماع الذى يقارن بين المجتمعات فى فترات مختلفة وأماكن مختلفة من الكرة الأرضية يستطيع أن يثبت

بعض العوامل ويترك بعضها الآخر ليخضع للتغير مثله مثل العالم الطبيعى فى معمله تماما · حقيقة أن التحكم فى العوامل يعتبر أمرا صعبا فى العلوم الاجتماعية ، ولكن الدراسات المقارنة تجعله ممكنا بطريق غير مباشر ·

ويعد الاطار التصورى الذى حددنا خطوطه العامة حتى الآن مفيدا لعلم الاجتماع المقارن بثلاثة طرق : **فأولا** وقبل كل شىء يتضمن مبدأ التباين بعض الدلائل الهامة · فالمجتمع الاكثر تباينا يعد مجتمعا اكثر تقدما من الناحية البنائية والوظيفية داخل الاطار العام للتطور · وبالتالى فكلما أظهر المجتمع تباينا بين أنساقه الفرعية الأربعة ، كلما أمكن القول بأنه مجتمع متقدم بالمقارنة مع المجتمعات الأخرى فى ضوء الاطار العام للتطور · ولهذا فان النموذج التحليلى للأنساق الفرعية الأربعة يعتبر نقطة انطلاق مرجعية هامة بالنسبة لعلم الاجتماع المقارن · فمن خلاله يتجنب العلماء العشوائية وعدم الدقة فى مقارنة المجتمعات · فباستطاعتهم أن يرجعوا الى اطار تحليلى ينطبق على أى نسق اجتماعى او جماعة اجتماعية · فالمستوى الاعلى من التجريد الذى يتمتع به النموذج التحليلى يضفى عليه فائدة كبيرة لخدمة أغراض البحث المقارن ·

ثانيا : لا تعتبر الأنساق الفرعية الأربعة ـ داخل أى نسق من أنساق الفعل ـ على درجة متساوية من الأهمية · ففى كل مجتمع يكون هناك نسق فرعى اكثر ظهورا (اكثر اهمية) من الأنساق الأخرى· ففى المجتمعات الصناعية على سبيل المثال ، تطورت الوظيفة الاقتصادية وتضاعفت الى درجة أن أصبح لها أولية قصوى فى المجتمع ؛ فقد ظهرت مؤسسات متخصصة تؤدى كل منها وظيفة واحدة فى انتاج وتوزيع السلع · وفى المقابل ، هناك نماذج من المجتمعات تبرز فيها الوظيفة السياسية وتسيطر على كل النسق الاجتماعى · ويصدق ذلك على المجتمع المصرى القديم ، الذى كان يلتف حول الادارة الحكومية البيروقراطية التى اقامها الفراعنة · ولم يستفض بارسونز كثيرا فى

استخدام النموذج التحليلى للتباين لاغراض المقـارنة • غير أنه تحدث بدرجة كافيـة عن امكانيات استخدامة ، خاصـة فيمـا يتعلق بالمجتمع الصـناعى •

أما البعد **الثالث** للاطار التصورى الذى يفيد فى الدراسات المقارنة فهـو متغيرات النمط • وكان بارسونز هنـا اكثر وضوحا • فقـد كرس صفحات عديدة من كتـابه « النسق الاجتماعى » لايضاح كيفية استخدام متغيرى الخصوصية / والعمومية ومتغيرى النوعية / والانجـاز كاطار عام للتحليل المقارن • فكما يوضح الشكل رقم (٧) تشكل هـذه المتغيرات تصنيفـا لأربعـة انماط من المجتمعات ، قـدم بارسونز بعض أوصافها • ويحدد هذا التنميط أربعة أنواع من المجتمعات يمكن تتبعها تاريخيا •

	العموميـة	الخصوصيـة
الانجاز	المجتمعات التى تضفى قيمة عالية على الانجاز الفردى من خلال القواعد التى تطبق بصرف النظر عن نوعية الأفراد مثال ذلك الولايات المتحدة الامريكيـة	المجتمعات التى تضفى قيمة عالية على الانجاز الفردى مع وجود قواعد تأخذ فى اعتبارها خلفية العلاقة التى يمارس فيها الفاعل • مثال ذلك الصين القديمة
النوعية	المجتمعات التى يحكم الفاعل فيها معايير عامة ، بينما يظل متدرج المكانة التغيرى ذا أهمية فى النسـق الاجتماعى • مثال ذلك المانيا •	المجتمعات التى يحكم الفاعل فيها معايير تتغير طبقا لمكانة الفاعل وخلفية الفعل ذاته • مثال ذلك مجتمعات أمريكا اللاتينية

شـكل (٧) انماط المجتمع فى ضوء زوجين من متغيرات النمط

وباستخدام متغيرات النمط بهـذه الطريقة فى المنظـور التطورى المقارن ، اكمـل بارسونز الدائرة • فمن خـلال علم الاجتماع المقارن ، تؤدى التطورية الى النقطـة الأولى فى نظرية الفعـل ، وأعنى متغيرات النمط ، التى تعد المقولات البنائية الأساسية لأى نسق من أنساق الفعل • وهنا يتكامل التحليل البنـائى مع التحليل الدينامى • وبهـذا فان هناك نوعا من الوحـدة والترابط فى النموذج النظرى ، تلك الوحدة التى كان بارسونز يسعى اليهـا منذ البـداية • ولكن يبقى التساؤل : كيف نفـذ بارسونز هذا المقصد ، وكم كلفه ذلك ؟

الحواشى

(١) يوجد تاصيل نظرية بارسونز فى علم الاجتماع بصفة خاصة فى الأعمال التالية :
Essays in Sociological Theory (1949), The Social System (1951); Structure and Process in Modern Society (1960), The Sciological Theory and Modern Societies (1967).

(٢) يعتبر هذا الشكل شكلا مشتقا من شكل (٥) عند روشية (SJM)

(٣) خاصه فى مقاله التالى :
"System Analysis: Social System, in: **The International Encyclopeadia of Social Sciences** (New York : The MacMillan Company and the Free Press, 1968) PP. 458 - 73.

(٤) هذه ترجمة لصياغة روشيه لنص بارسونز ، وربما اكثر اكثر وضوحا من نص بارسونزالأصلى . ويمكنك أن تجد النص الأصلى لبارسونز فيما بعد (SJM) .

(٥) اضفنا هنا الى النص الذى جاء به روشية ، بالرجوع الى عمل بارسونز بعنوان **Politics and Social Structure** (1909) PP. 371 - 3. (SJM)

(٦) لقد وصفت هذه الأنساق بالتفصيل فى المصدر السابق مباشرة ص ٣٩٩ . (SJM) .

(٧) أنظر :
"An Outline of the Social System" in **Theories of Society** (1961), Vol. 1, P. 60.

(٨) وصف بارسونز المراحل الثلاث فى الكتابين التاليين :
Societies : Evolutionary and Comparative Prespectives (1966). The System of Modern Socieies (1971).

ويعالج الكتاب الثانى المرحلة الثالثة ، غير أنه ظهر أخيرا بحيث لا يمكن ادخاله فى هذا التحليل .

(٩) أنظر :
T. Parsons, **The Social System** (1951) PP. 102 - 200.